نوار نيسان ..
معلم وطالب في مسارات للتعلم

عبير المدهون

«أي شيء يصبح مثيراً للاهتمام إذا تعمقت فيه بما يكفي».
كوستاف فلوبيرت

عندما قررنا، كطالبات ومعلمة، داخل التعلم عبر المشروع، في «دقيقة ونصف» أن نغوص معاً في عمق الحكايا التي يرويها موج البحر وشاطئه، بل وأصدافه وأسماكه، بدأنا معاً كفريق اعتاد أن يتساءل دائماً مادا سيعني لنا البحر هذه المرة؟ كيف لنا أن نشارك ونتشارك في نوار نيسان؟ «إحنا والبحر» عصف بأذهان الطالبات لخارج حدود المعتاد، من هنا كانت بداية البداية. فما زال يثيرنا وخز الأفكار حول ماهية المشاركة، إلا أن «صندوق البحر» كان نتاجاً لمرحلة من التفكير والتشارك والحوار. من هنا أطلق العنان لخيال الطالبات حول رمزية الصندوق وماهيته.

وردة: ربما عثر عليه في قاع البحر، وكان يحوي رسالة من أحد الملوك العظام.

ريمان: لا، بل هو صندوق دفن على الشاطئ أو حملته الأمواج من وطن إلى آخر.

سارة: على أي حال، فأيًّا كان هذا الصندوق، فقد حمل الأسرار، وعلينا أن نفكر فيها ... من الممكن أن يحمل كنزا أو متاعا لأحدهم ... المهم أن نبدأ ونروي ذلك السر».

بدأت الطالبات في سرد قصص وحكايا حول البحر، وماذا يمكن أن يكون قد أخفى على مر السنين من أحداث، ربما لصياد، أو لحورية بحر، وربما ... وربما، حيث تقف مندهشاً أمام مداد الخيال، فكل الممكنات متاحة، بمساحة تمكن المشاركات من ربط الخيال بالواقع، وعبر النقاش تشعر أن كل ما تسرده الطالبات مهم وعميق، يحمل قضايا إنسانية، يتم توثيقها قبل الفعل وداخله عبر أدوات الخيال والكتابة، تلك الكتابة التي تنتج المعاني، ليصبح التعلم تفاعلياً تشاركياً يتيح للمدارك فرصة لبناء المعارف والمهارات والقيم، ليس عبر النمط التلقيني الذي كثيراً ما يحدث داخل الغرف الصفية، ثم نطلق عليه وصفاً «للتعلم»، الأمر هنا مختلف، حيث يؤكد ألبرت أينشتاين «أن التعلم هو ليس درس الحقائق، وإنما هو تدريب الذهن على أن يفكر»، هذا كل ما كنت أحاول الوصول إليه، أن تتعلم الطالبات كيف يفكرن بطريقة تتيح لهن التعبير والتقييم والنقد المبني على عمق الفهم، والتنبؤ بما سيكون، أو لا يكون.

وخلال التخطيط للمرحلة الأولى من مشاركتنا في نوار نيسان، تم الاتفاق عبر الورش التفاعلية داخل المدرسة، ليس للغوص في أعماق الفكرة فحسب، بل أيضاً لتحويلها لعمل فني يجسد القصة بأشكال وألوان مختلفة، باستخدام خامات البحر المتعددة من رمل، وأصداف، وخيوط.

«أنا البحر» .. هل عرف أحد معنى لحروفي؟»؛ الباء بيت لكل فلسطيني وباباً يفتح له، والحاء حلم العودة الذي انتظره جدي الصياد طويلاً فدفن في الأرض وظل البحر يردد حلمه كل صباح، والراء رنين صوت الأسرى خلف القضبان والجدران. أعرفتم معنى كلمة بحر، فباؤه بداية، وحاؤه حماية، وراؤه رواية، ونحن بين الثلاثة نحلم وما زلنا نحلم» (هيا زيد).

هذا ما أرادت هيا أن تخبرنا وتخبر «الآخر» به، أرادت أن تقول وكأن البحر يشعر بنا كفلسطينيين أكثر مما فعله أخوتنا البشر. هكذا عبرت عن مشاعرها كطفلة أرادت أن تحمل رسالة لكل العالم، بأننا هنا موجودون ونستحق الحياة.

«مع كل صباح تتدحرج الشمس على مائي لتسألني هل ما زالت تحمل أحلام الأطفال العالقين والمشردين أم قدفتها على الشطآن؟» (ديانا لبد).

ما يثير الدهشة أن يصرخ قلم ديانا في وجه العالم لتروي لنا واقع الطفولة التي سلبتها الحروب والصراعات التي أصبحت جزءاً من ثقافتنا. تجرأت ديانا لتقول لنا كم حمل البحر بين أمواجه قصصاً أليمة لأطفال سُلبوا طفولتهم.

لقد تم الانتهاء من المرحلة الأولى من مشاركتنا في مهرجان نوار نيسان، حيث كان النتاج يحمل زخماً أدبياً وفنياً لمجموعة من الطالبات انخرطن في الأنشطة، تدفعهن الرغبة والاهتمام لاستكشاف ما حولهن، يحملن رسائل محبة وسلام من أرض تتوق للسلام. كان الحافز قوياً للتحضير للمرحلة الثانية من النشاط، وبالفعل، بدأت الطالبات بالتساؤل مجدداً: كيف لنا أن نعرض نتاجنا للآخرين؟ وكيف يمكن أن نخلق أجواء تفاعلية مع الحضور؟ مادا يمكن أن نضيف لنعطي الجمهور فرصة للتعبير؟ المزيد من الأسئلة تنمو في عقول الطالبات للتخطيط بشكل فاعل للمشاركة في المهرجان، حيث تم الاتفاق على:

جانب من مشاركة الأطفال في فعاليات مهرجان نوار نيسان، غزة 2016.

خطوات (المرحلة الثانية):

- تعرض المشاركات قصصهن في صندوق ملون، وباستخدام الزجاجة الدوارة يتم اختيار أحد الحضور.
- يقرأ المشارك القصة التي يختارها قراءة سريعة، ثم عليه أن يتعرف على بطل القصة، ويمثله بشكل صامت (لعبة بدون كلام).
- يحاول الحضور تخمين البطل، أو يمكن تمثيل: شخصيات، أدوات، أماكن، وردت في القصة.
- تقوم المعلمة بالتدخل لتطوير نقاش تفاعلي مع الحضور حول القصص ورمزيتها، وارتباطهم بالبحر، وعلاقاتهم بمكوناته لبناء معان خاصة بهم.
- تساهم المشاركات في إنتاج القصص في التفاعل مع الحضور، من خلال المناقشة أو تنظيم العرض.
- يتم تدوين مفردات عدة مختلفة غير متجانسة من القصص. يختار أحد الحضور ثلاثة منهم وعليه أن يعبر عنها في سياق يحمل معنى.

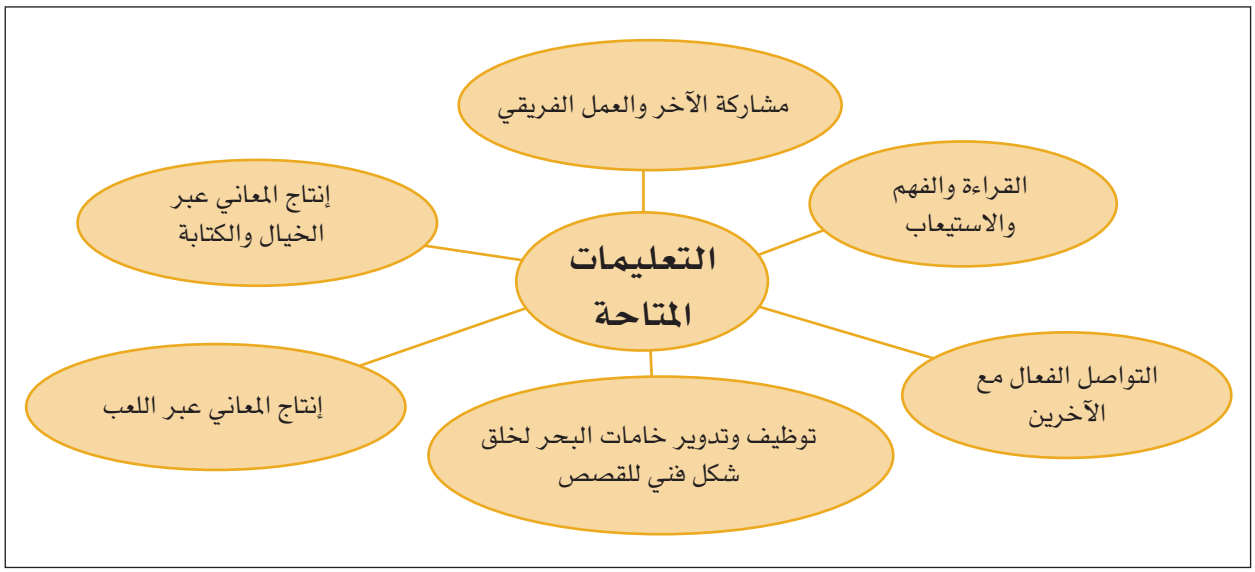

التعلمات المتاحة في نشاط صندوق بحر

يقول جون ديوي «إن التفكير لا ينشأ إلا إذا وجدت مشكلة»، ومن هنا بدأت، كمعلمة، داخل فضاء الفعل وخارجه بالوقوف عند المشكلات والصعوبات خلال العمل مع الطالبات في نشاط «صندوق البحر»، وبدأت التفكير والتساؤل حول إمكانية خلق مساحة خصبة للتعلم واستسقاء الحلول والبدائل وصولاً لتطوير الذات والآخر.

صعوبات داخل التجربة	تساؤلات مطروحة	بدائل متاحة
الانتقال من عالم الواقع إلى عالم الخيال	كيف يمكن لي أن أنقل الطالبات من الواقع للخيال، والعكس تماماً؟	• تقوم الطالبات بأدوار مختلفة في سياق تخيلي لحكايات وأسرار عن البحر، يعقبها نقاش تفاعلي لربطها بالواقع.
المحافظة على وحدة ا لفر يق	ما الذي يدفع بعض الطالبات لرفض العمل الفريقي والرغبة في التفرد؟	• دمج المشاركين في المزيد من الأنشطة التفاعلية وإتاحة مساحة للتعبير بشكل أكبر. • ترك مساحات للتميز الفردي داخل الفريق. • توزيع الأدوار ليكتمل الجانب الفني لشكل القصة مع السرد والكتابة.
ضيق الوقت المتاح والصعوبات اللوجستية داخل المدرسة	كيف يمكن أن يصبح ضيق الوقت حافزاً للمعلمة وللمشاركات؟	• التشارك لوضع مخطط زمني على شكل مهام محددة. • دعم أولياء الأمور لأبنائهم في المنزل والاستماع لقصص تتعلق بالبحر من الآباء والأجداد لتطوير نتاجاتهم.
مخاوف من تفاعل الحضور داخل النشاط خلال المهرجان	• ما الذي قد يكون سبباً لعدم مشاركة الحضور بطريقة فاعلة؟ • كيف يمكننا ربط قصص الطالبات في نشاط تفاعلي تشاركي للمعاني والأفكار؟ • لو لم يتفاعل الحضور، ماذا يمكننا أن نفعل؟	• التخطيط لنشاط يخلق فرصة للعب والحركة والتعبير معاً. • ترك مساحة للنقاش حول معاني الأشياء المتعلقة بالبحر ورمزيتها وحكايا الأجداد والصيادين. • تتخيل الطالبات أدوارهن داخل العرض وإمكانية إثراء النقاشات. • التجهيز لمشاركة الحضور في صنع صندوق للبحر وتزيينه بشكل فني في حال وجود ملل داخل العرض.
تطوير كتابات الطالبات بطريقة إبداعية والتركيز على عمق الفكرة	• هل جميع الطالبات يمتلكن المهارات للكتابة الإبداعية. • مادا ستكون أدوارهن؟ • ما الطريقة المثلى لتطوير كتابات الطالبات؟	• عمل المشاركات داخل مجموعات لتتكامل الأدوار، ومساندة بعضهن سواء عبر التعبير أو الخيال، والكتابة أو توظيف الأشياء المادية المتعلقة بالبحر لوضع لمسة فنية للعمل. • مشاركة الطالبات لاقتراح أفضل السبل لتطوير الكتابات عبر العصف الدهني، واختيار الطريقة المثلى المناسبة؛ إما عبر الورش، وإما بطريقة فردية.

من المؤكد أن لا تخلو مسارات التعلم من الصعوبات التي تفرض على المعلم أن يكون على قدر عالٍ من اليقظة والحذر عند كل تصرف قولاً وفعلاً، وأن يصبح قادراً على أن يجيب عن الأسئلة التالية:

- هل يجب أن أتدخل؟
- متى أتدخل؟
- كيف أتدخل؟
- لمادا أتدخل؟

في كل مرة تجد تساؤلاً ما يقودك إلى التعلم، ثم يقودك ما تعلمته لتثري تعلم الآخرين. «إحنا والبحر» كان تجربة ثرية بامتياز، وهدا ما دفعني إلى التأكيد على قول ألبير كامو «لا يمكنك خلق تجربة بل عليك اجتيازها»، فلو خلقت التجربة

على سبيل الافتراض فلن تعيشها. يذكرني هذا بتأملات إحدى الطالبات في مذكراتها حول النشاط حينما اجتازت هذه التجربة:

«كنت سعيدة جداً وأنا أكتب عن قصة تلك الحورية التي تسأل نفسها كل صباح لماذا أنا حورية ولا أملك أقداماً كالبشر ... حاولت أن أجد نهاية لهذا السؤال في قصتي. فكان الجواب إنها ولدت بتشوه في جسدها، ولأن والديها لم يحتملا ذلك، تركاها ذات يوم على صخرة عند الشاطئ، فحضنها والدها البحر في قاعِه، وكل صباح تخرج إلى تلك الصخرة لتسال نفسها ماذا لو كانت كالبشر؟».

جانب من مشاركة الأطفال في فعاليات مهرجان نوار نيسان، غزة 2016.

في تأملي لما كتبته ميس الريم؛ وهي طالبة في الصف السابع، انتابتني الدهشة من تساؤلها، وكيف بحثت عبر الخيال لتجيب عنه. هل أرادت أن تحمل صعوبة ذوي الإعاقة في مواجهة الحياة والآخرين؟ هل حورية البحر هي رمز يحمل معاناة من هو ليس كمثلنا في هذا العالم؟ وفكرت أكثر في تساؤلها الأخير ماذا لو كانت حقاً بأقدام كالبشر؟ أيمكنها أن تتعايش معهم؟ ميس الريم بدأت تفتش في عمق ما يعانيه الآخرون من حولنا. أوَليس ذلك تعلماً؟

معلمة في مدرسة غزة الابتدائية المشتركة «ج»

جانب من مشاركة الأطفال في فعاليات مهرجان نوار نيسان، غزة 2016.